

مذهب السوفسطائية

للأستاذ الحكيم طنطاوى جوهرى



(صورة الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى)

« ليس من يجمل بمهر الشيخ طنطاوى جوهرى
هو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرر الشهير . ذلك
الإنسان ذو العقل الكبير . بل أحد رؤساء الحركة
السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب
الأسلامي تحت اسم الجامعة الوطنية »

سانتيلانا

هذا ما يقوله الأستاذ سانتيلانا المستشرق الأبطال الشهير . فى كتابه صدى صوت المصريين
فى أوروبا . والذي نشر منذ عشرين سنة تقريبا
وقد تفضل علينا الأستاذ الشيخ طنطاوى بهذا البحث - مذهب السوفسطائية - الذى ننشره
لفضيته شاكرين

المحرر

أعجبتني وأيم الله مجلّة (المعرفة) وسرني كثيرا مانشر فيها من موضوعات قيمة تفيد الامة والوطن والأسلام ولذا العلم بجميع فروعهِ . بما يدل على المقدرة العلمية لولدنا الفاضل الأستاذ عبد العزيز أفندي الاسلامبولي . ويشهد له بطول الباع في الكتابة . وحسن الاختيار وغزارة العلم وبعد المهمة مما لا يوجد إلا في القليلين

فأريت لكل ما تقدم أن أساهم في هذا العمل الجليل ، وأساعد بقدر الطاقة ، بالكتابة في هذه الصحيفة القيمة ، وهأنذا أبدأ يبحث فلسفي عن مذهب السوفسطائية ليرى أبنائنا كيف كان عليه القدماء

قال اليعقوبي في تاريخه (ص ١٦٦ ج ١) وتفسير هذا الاسم (السوفسطائية) باليونانية « المغالطة » ، وبالعربية « التناقضية » يقولون لاعلم ولا معلوم ... الخ) وقد تعقبه الأستاذ (ستيلا نه) وخطأه فقال (السوفسطائية باليونانية معلو الحكمة ، أو طالبو الحكمة)

وصوب كلام الشريف المرتضى في الاتحاف (مجلد ٩ ص ٤١٨) إذ قال : (السوفسطائية) طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة . فضلا عن اتصافها بالوجود . بل كلها أوهام لأصل لها ، وسوفسطائية كلمة يونانية معناها طالب الحكمة ، إنتهى كلام الشريف الذي نقله الأستاذ ستيلا نه . ثم قال الأستاذ المذكور :

والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة . كانوا يجتازون المدن والاقطار يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا في أقرب وقت مع أنهم أجمعوا أنه لا علم في الحقيقة ، ولا حكمة ، وأن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود - على فرض وجوده - هو ما يدركه بحواسه الخمس ، ولما كان الإدراك الحسي مما يختلف بين الناس من إنسان لآخر . بل وفي الإنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل ، ولا خير ولا شر . بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ليستقيم به

معاشهم ، ويكفي بعضهم شر بعض ، وهو في نفسه أمر ليس بموجود طباعاً — ثم قال : وبعد إجماعهم على هذه الأصول اختلفوا .

(١) فذهب (بروتاغورس) إلى أنه ما ظهر لكل واحد حقاً فهو حق بالنسبة إليه — فقال إن الإنسان مقياس الأمور في وجودها ، وفي عدم وجودها أي ما رآه كل واحد موجوداً فهو عنده موجود ، وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره

(٢) وذهبت طائفة أخرى من أتباع (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغيير الدائم كان الإنسان غير متمكن من إدراك الحق بوجه — وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل آن من ظواهر الأشياء ، لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه في آن آخر ، ولا يقول بوجود شيء البتة إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معاً لا طاقة للبشر عليها قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى مذهب (العندية) والمذهب الثاني (العنادية) قال : وقد ألحقوا بهما مذهباً آخر ولكنه ليس من السوفسطائية في شيء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصراً لـ الإسكندر الرومي . ذهب إلى الشك المطلق ، وهو الأمسك عن الجزم بشيء أحق هو أم باطل ؟ قال ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية) قال : وإليهم أشار نصير الدين الطوسي في حاشيته على المحصل (ص ٢٣) وذكر ما يقرب مما تقدم فلانطيل فيه . فهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم في الماء أو الهواء ، أو أجزاء المادة

وبعبارة أخرى أن هذه الطبقة ، وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه . فإذا كان من قبلهم قد حبسوا في العناصر من ماء وهواء ، ونار وتراب . أو في أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادي ، وقالوا نحن لا نتقيد بغير ما . ثم قال هذه هي فلسفة اليونان في أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح ، من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية وأخذ يدحض هذا المذهب ، وبما قال (وقد قيل إن

الشك يهدم نفسه) وذكر حكاية (ديوجانس الكلبي) أنه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يتمشى في المجلس ، ويضرب بعصاه الأرض إشعاراً منه بأن مثل هذا القول المنكر للظاهر لا يحتاج في نقضه إلى بيان

ثم نقل عن المتكلمين المسلمين في كتبهم (أن هؤلاء الشاكين لا ينبغي مناظرتهم . بل إحراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ماكانوا ينكرون) فيمكن التكلم معهم ، قاله الإمام الرازي في المحصل ، والشيخ التفتازاني في شرح العقيدة النسفية . انتهى كلام الأستاذ ستيلا

ثم إنى هنا لا بد لي أن أنقل لقراء « المعرفة » الصحيحة المعارف ، كلام الأستاذ ستيلا بنصه وفصه . لانه فيلسوف أوروبي ، ليكون ذلك زجراً لهؤلاء المتعلمين في الشرق الذين يرجع بعضهم من أوروبا ، وهم إمداديون وإما طبيعون ، وإما سوفسطائية ، وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم فيرجعون وهم غافلون قال مانصه بالحرف الواحد :

(أما القول بالطبيعة وألا شيء غيرها فهو لا يرضى العاقل المتبصر) كأنه يقول نعم لا أنزع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها . فلولم يكن هناك إلامادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب الذي حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث — ليت شعري كيف بقيت على تألفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك . لا تقضى إلا إلى غاية الالتباس ، وعدم القياس ، هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المعجم في ظرف أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة . أو رسالة عميقة

في المنطق أو كتاب في الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف . فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الأتقان ، والأحكام ، وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض ، من حركات اتفاقية في خلاء لا نهاية له ؟

قال أرسطوطاليس في كتاب (سمع الكيان) (إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا عن هذا إن ما حصل اتفاقا لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا إلى الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها . فمن أين هذه القوى العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه وهي مع ما فيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية . فوجود مثل هذه القوى يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويمثلها ويكون مركزا لها) ثم قال :

« وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان وتفريق القضايا وتركيب القياسات ، لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك المادة بجزء آخر ؟ وهل يسرع في العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات ، والألهيات ، وما فتئت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء .

هنا لك سلم اليونانيون من هذه الحيرة فلا العناصر كالماء والهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذي لا يتجزأ ، ولا مذهب الشك ، أو العنديه ، أو العناية تغني فيلا عن معرفة الحقائق ؟